القرن التاسع

1 - القلقشندي

2 - ابن الوزير

3 - المقريزي

4 - ابن حجر العسقلاني

5 - ألوغ بن شاه رخ

6 - السيوطي

7 - زكريا الأنصاري

9

هـذا القرن

يبدأ القرن التاسع الهجري في عام 1398 ، لينتهي في عام1491 في التقويم الميلادي ، ولا يقل هذا القرن سوءا عن سابقه ، سواء في الأحوال السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية أو العلمية أو حتى الدينية .

ففي الحالة السياسية : على الرغم من أن التاريخ يسجل بأنه كان للمسلمين دول في المشرق ، وأخرى في المغرب . فالدول الإسلامية التي كانت في المشرق منها : الدولة التيمورية ، تلك التي أنشأها «تيمورلنك» ، ومكانها كان فيما بين النهرين ، وخوارزم ، وخراسان ، وتركستان ، إلى جانب الدولة العثمانية التركية وتشمل : آسيا الصغرى والبلقان بعد استيلاء تركيا عليهما . ثم دولة المماليك بمصر والشام ، وبعض دول الجزيرة العربية .

وأما الدولة الإسلامية في المغرب والأندلس فكانت تشمل : دولة بني مرين بالمغرب الأقصى ، وفي الأندلس كانت هناك دولة بني الأحمر ، وبعض المناطق الأندلسية التي كانت تتبع المسلمين على الأقل من الناحية الشكلية .

وطبيعي أن تكون دول الإسلام في المشرق على شيء من القوة أكثر من دول الإسلام في المغرب والأندلس ، ذلك لأن الأولى كانت تضم الدول ذات التدريب القتالي ، وعلى وجه الخصوص الدولة التيمورية والدولة الخوارزمية ؛ حيث خاضت هاتان الدولتان العديد من الحروب ، بينما نجد أن دول الإسلام في المغرب والأندلس لم تكن على هذه القوة .

إلا أن الدولتين : المشرقية والمغربية تتفقان في ظاهرة واحدة هي : أن عوامل التفكك والتمزق والانحلال والفساد كانت واحدة ، ويكفي أن نضرب مثلا يؤكد ذلك ، هذا المثال يسجل لنا تاريخيا بأن خفيرا كان راعيا للغنم في ببا التابعة لبني سويف بمصر ، أراد أن يتوسع في رزقه فسافر إلى القاهرة ، ولم يجد بها عملا سوى القيام بخدمة أصحاب بعض المهن مثل : الطباخين أو الجزارين ، ولكنه بأسلوب أو بآخر استطاع أن يكون ثروة تنبهت لها حكومة المماليك . فطلبوا منه عونا ماليا يفي بصرف مرتبات المماليك في الحكومة ، ففعل حتى استطاعت الحكومة أن تصرف هذه المرتبات من مال هذا الرجل الذي كان في الأصل خادما لبعض أصحاب المهن... وما هي إلا فترة من الزمن فيها استفحل أمره بسبب ثروته ، وهنا فكر الوالي وقتئذ أن يختاره ضمن وزرائه . وهكذا أصبح هذا الخادم وزيرا . هذا المثال وغيره من الأمثلة ربما هو الذي جعل السخاوي يسجل في كتابه (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) فيقول عن الوالي وقتئذ : «إنه لم يعلم واليا أوضع منه ، مع كثرة الولاة من الأوباش في هذا القرن ، وإنه لم يتحول فيها عن عاميته مثقال ذرة ، ولم يتطبع بما ينصرف به عنها مقدار خردلة ، وإنه كان يبالغ في الظلم والعسف والاستخفاف بالناس».

يضاف إلى هذا الفساد السياسي فساد آخر يتصل بالدين ؛ حيث ازداد نفوذ أصحاب الطرق الصوفية ، وحيث كان الولاة والملوك يبالغون في احترامهم وتقديرهم والخضوع لهم ، وذلك لازدياد اعتقاد العامة بهم وتقديسهم ، فكان هؤلاء الولاة والحكام يبالغون في الخضوع لأصحاب الطرق الصوفية حتى يكسبوا رضا هؤلاء العامة .

وكان من نتيجة ذلك أن تسوء الحالة الاجتماعية ويزداد شقاء الرعية ، ولاسيما في دولة المماليك بمصر ؛ لأن حكامها كانوا من جنس غير جنسها ، إذ كانوا من الترك والجركس الذين أبوا أن يندمجوا في الرعية الوطنية ، بل استمروا محافظين على

خصائصهم التي جاءوا بها إلى مصر أو غيرها مترفعين على أبناء الشعب من الفلاحين وأصحاب الحرف ، ولم يكن التقدير الذي يؤدي إلى الترف والفن إلا لمن ينتمي للترك أو الجركس ، أو لأتباع الطرق الصوفية ، وأما بقية فئات الشعب ، فيعيشون في ضنك وإهانات وفقر ومظالم متلاحقة ، ولا تقدير لهم سوى أنهم الفلاحون أو العبيد عمال الأرض الزراعية ... مع أنهم في الحقيقة هم الأسياد أصحاب هذه الأرض ، كذلك لم تكن الحالة العلمية بأفضل من الحالتين : السياسية والاجتماعية . وكان لكل دولة من الدول الإسلامية صبغتها التي تميزها عن الأخرى، فكانت الدولة التيمورية أقوى أثرا ؛ لأن علماءها كانوا يجمعون بين ما ينتج عن العقل والنقل . وكانت الحركة العلمية في الدولة العثمانية التركية متأثرة هي الأخرى بالحركة العلمية للدولة التيمورية ، ولا تزيد بقية الدول الإسلامية عن ذلك؛ مما نتج عنه ضعف علماء المسلمين في هذا القرن . وازداد انصرافهم عن الاشتغال بالعلم ، وكيف يكون الاهتمام بالعلم ورجاله ، في وقت ازداد فيه نفوذ وطغيان جهل المتصوفة ، حتى صار جهلهم علما لدنيا يعلو على علم غيرهم .

يحدث هذا في دار الإسلام في وقت تتقدم فيه أوروبا وتتطور ، حتى تدخل عصر النهضة في القرن السادس عشر الميلادي بعد قليل كما سنرى . وإذا قارنا بين أحوال المسلمين في هذا القرن وأحوال أوروبا ، وجدنا في أوروبا تطورا ونهضة بينما نجد في المسلمين جمودا وتأخرا . حتى ما كان لذلك أثره في غفلة المسلمين في هذا القرن عما كان يحدث في أوروبا من نهضة شملت كل جوانب الحياة . وكانت الطامة الكبرى بالنسبة للمسلمين في هذا القرن هي في عدم تقديرهم لما تقوم به أوروبا الغربية في بلاد الأندلس والمغرب ؛ مما سيكون له أسوأ الأثر في القرون التالية .

وطبيعي .. وقد وصلت دول دار الإسلام إلى هذا الحد من التدهور أن تحتاج إلى مجددين يصلحون من أمر أبناء الإسلام ، ويقفون ضد ما يحدث من فساد بسبب

استشراء نفوذ أتباع الصوفية. فظهر المؤرخ والعالم «جلال الدين السيوطي»، وقاضي القضاة «زكريا الأنصاري» في مصر ، كما ظهر في اليمن «ابن الوزير» ، ولكن ما الذي يفعله هؤلاء أو غيرهم في العصر الوسيط بما فيه من صعوبة في وسائل الاتصال والانتقال ؟ ماذا يفعلون في هذه الدولة المترامية الأطراف شرقا وغربا !؟ ولهذا يظل التدهور والاضمحلال سائدا زمنا طويلا .

القلقشندي

«أبو العباس شهاب الدين أحمد القلقشندي» .. من مجددي القرن التاسع الهجري، ويعرفه التاريخ الإسلامي بصاحب مجلدات (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) ، وهي دائرة معارف أورد فيها كل ما يحتاجه الكتاب من الفنون والعلوم . هذا إلى جانب كونها تسجل ما يعرفه عن عصره ، وله قيمته الكبيرة فيما يتصل بتاريخ مصر والشام . وقبل الحديث عنها وعن صاحبها نشير إلى قيمة الموسوعات كعمل فكري جديد .

لقد كان للعرب المسلمين الأقدمين سبق في كتابة الموسوعات ودوائر المعارف على غيرهم من الأمم ذات الحضارات : قديمها وحديثها ، وهذا النوع من الكتابات دليل على دورهم في حركة التنوير بوجه عام .

ففي تاريخ الفكر الإسلامي ، لم يكد يمضي على الرسالة المحمدية قرن من الزمان ؛ حيث نشطت حركة التجميع لأطراف المعارف ، ومعها حركة واسعة للتقنين العلمي.. وكان ذلك ملحوظا في علوم اللغة والفقه ، ثم نقل ثقافات الآخرين وتمثلها . حتى إذا جاء القرن العاشر وامتداده في القرن الحادي عشر الميلادي (الرابع الهجري والخامس الهجري) . حتى بلغ التنوير ذروته ، فكانت رسائل إخوان الصفا بمثابة الموسوعة أو دائرة المعارف .. التي هي عادة رمز يشير إلى التنوير من ناحية جمع المعلومات ، وكانت الفلسفة الإسلامية بما تتضمنه من جمع لأطراف المعارف وتأملها وتحليلها قد بلغت ذروتها عند الفارابي وابن سينا .. مما يشير إلى سلطان العقل وسيطرته - وقتئذ - على جمع المعارف .

وكان مع الفلسفة في تلك الإشارات التنويرية إلى سلطان العقل حركة قوية في النقد الأدبي ، لأننا إذا قلنا «النقد الأدبي» للعرب الأقدمين فكأننا قلنا : إنه العقل بتحليلاته العلمية التي لم يكن الركون إلى مسألة (أحكام الذوق) فيها إلا بمثابة الحلية الصغيرة التي توضع على الثوب العريض . وحتى الشعر ذاته ، فقد غلبت عليه هذه النظرة التي تطمح إلى تجميع المعارف والسيطرة عليها وتأملها وتحليلها ، وكأنها بذلك تريد أن تجمع الكون كله في حبة رمل ، فكانت نظرة الشعراء ، وفي مقدمتهم «أبو العلاء المعري» تطل على الإنسان من أعلى لتسبر أغواره ، وتكشف حقيقته .

وأبو العباس القلقشندي صاحب (موسوعة صبح الأعشى) الذي عاش ومات بين القرنين الهجريين : الثامن والتاسع (756- 821) للهجرة كان واحدا من هؤلاء العرب المسلمين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة جليلة ، هي الإسهام بنصيب في بناء الثقافة العربية الإسلامية من خلال كتاباته المتعددة ، وأبرزها موسوعته : (صبح الأعشى) ، التي لا يخلو عمل فكري في الثقافة الإسلامية إلا ويرجع إليها ، متزودا منها بالكثير من المعارف التي سبق غيره في تجميعها والسيطرة عليها .

وعلى الرغم من أهمية القلقشندي وموسوعته وبقية كتبه، فإنه لا يحظى من الكتاب والمؤرخين بحظ كبير في التأريخ له أو الكتابة عنه ، سواء الأقدمون أو المحدثون .

فمن الأقدمين نجد هناك إشارات إلى تاريخ وفاته عام 821 هـ سجلها كل من: المقريزي ، وابن حجر ، والعيني ، والسخاوي .. ولعل أوسع ترجمة كانت عن القلقشندي كتبها السخاوي في كتابه (الضوء اللامع) ، ومع هذا تستوعبها سطور قليلة قال فيها : «هو أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الشهاب بن الجمال الفزاري القلقشندي » (إشارة إلى بلدة قلقشندة الموجودة الآن بالقليوبية) ، ثم القاهري (إشارة إلى عمله في مدينة القاهرة) الشافعي (إشارة إلى انتسابه إلى المذهب الشافعي)، والد النجم (إشارة إلى ابنه العالم الفقيه الذي اشتهر أمره فيما بعد ..).

ويضيف السخاوي إلى هذه السطور التى توضح نسبه سطورا أخرى : «ولد سنة 756 هـ ، واشتغل بالفقه وغيره ، وسمع من ابن الشيخة .. وكتب في الإنشاء ، وناب في الحكم ، وبرع في الأدب والفقه ، وشرح قطعا من جامع المختصرات ، وكتب صبح الأعشى في أربعة مجلدات (الثابت أنها سبعة كما قرر المحققون من بعد ، وفي مقدمتهم الأستاذ إبراهيم الإبياري، والدكتور عبد اللطيف حمزة وليست أربعة). وهذا الكتاب يقصد : (صبح الأعشى) جمع فيه فأوعى ، وكان يستحضر أكثر ذلك من جامع المختصرات والحاوي ، وكتاب في أنساب العرب .. ومات يوم السبت العاشر من جمادى عام 821 هـ ، وعمره خمسة وستون عاما .. بعد أن برع في العربية، وعرف الفرائض ، وشارك في الفقه ، وسمع الحديث ، ونظم الشعر ، وكتب النثر..».

هكذا .. أرخ السخاوي بهذه الكلمات القليلة للقلقشندي ، هذا العالم الجليل الذي خدم الدين والأدب والعلم أجل الخدمات ، وهكذا يشير إلى موسوعته (صبح الأعشى) إشارة تدل دلالة صريحة على أنه لم يطلع عليها ، ولم يقف على محتواها ، وأكبر دليل على ذلك أنه أخطأ حتى في عدد مجلداتها فهى في الحقيقة سبعة كما يقرر المحقق الكبير «إبراهيم الإبياري» في تقدمته لتحقيق كتاب (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي) ، وهو كتاب جليل النفع يأتي في المرتبة الثانية بعد كتابه «صبح الأعشى» الذي اشتهر به ، والموجود الآن بدار الكتب في سبعة مجلدات كاملة غير منقوصة .

ومراحل حياة القلقشندي يمكن تركيزها في ثلاث مراحل مهمة ، من هذه الصفحات التى اهتمت به ، سواء فيما كتبه الأستاذ الإبياري في مقدماته الضافية لكتاب (نهاية الأرب) أو ما سجله الدكتور «عبد اللطيف حمزة» عن القلقشندي في سلسلة أعلام العرب . والحق أن الإبياري وحمزة قد أنصفا هذا الرجل أكثر مما أنصفه معاصروه ، وفي مقدمتهم : السخاوي ، وابن حجر ، والمقريزي ، والعيني .. هذه المراحل الثلاث هي :

- **مرحلة النشأة والتعليم** : حيث نشأ أبو العباس القلقشندي نشأة علمية سليمة ، وتربى تربية إسلامية صحيحة في بيت علم وفضل ، إلى أن توجه إلى الإسكندرية طلبا للعلم ، وأقام بها سنوات ، وفيها التقى بمشاهير العلماء التي كانت الإسكندرية تغص بهم ، وظل متلقيا للعلم والفقه والأدب والحديث والتفسير حتى أجازه شيخ الإسكندرية وقتئذ «سراج الدين بن أبي الحسن» ، المشهور (بابن الملقن) .. بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي ، كما أجاز له (ابن الملقن) الرواية على الكتب الصحاح الستة ، ومسند الشافعي ، ومسند الشافعي، ومسند أحمد بن حنبل ... وغيرها من الكتب التي هي أصول الفقه الإسلامي ، ولا يجوز لعالم أن يقوم بالفتوى إلا إذا كان قد درسها وهضمها وتمثلها .

- **أما المرحلة الثانية من مراحل حياة القلقشندي** : فهي مرحلة التفقه والتدريس والتأليف ، حيث عمل بالتدريس ، وانتفع به الكثيرون ، وتفقه في العقيدة والدين، وكان في ذلك من أهل الاجتهاد ، حيث حاول أن يضع لعلم الفقه أصولا وقواعد . وقد أنتج في هذه المرحلة الثانية من حياته كتبا في الفقه ، أهمها : «شرح لجامع المختصرات في فروع الشافعية » ، و«شرح الحاوي الصغير في الفروع» للقزويني ، وكتبا أخرى في الأدب ، أهمها : (حلية الفضل والكرم في المفاضلة بين السيف والقلم) ، و«شرح قصيدة بانت سعاد «لكعب بن زهير» وغيرها ، حتى استطاع القلقشندي أن يستفيد من هذه المرحلة ويفيد ، وتعد هذه المرحلة امتدادا لمرحلة النشأة التعليمية ، وبداية للمرحلة التالية التي تركت أجل الأعمال للثقافة الإسلامية .

- **المرحلة الثالثة** : وهي مرحلة تولى فيها كتابة الإنشاء في الديوان ؛ حيث اختاره السلطان لذلك ، فأسفر عن ذكاء ملحوظ ، وقريحة فذة أنتجت طائفة من الكتب، منها : كتاب أو موسوعة «صبح الأعشى» ، الذي استغرق في وضعه ما يقرب من

العشرين عاما ، وكتب أخرى في العلم بأنساب العرب ، وأهمها كتاب «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» الذي وضعه بعد موسوعة «صبح الأعشى» كما يقرر المحققون المحدثون . وقد اشتملت مقدمة كتاب «نهاية الأرب» على خمسة فصول ، هي بحق خير زاد لمن يريد التعرف على أنساب العرب وقبائلهم المتعددة، واشتملت خاتمته على خمسة فصول أخرى اهتمت بديانات العرب قبل الإسلام ومفاخراتهم ، والحروب الواقعة بينهم وأسواقهم وعاداتهم وتقاليدهم .

ولعل القلقشندي نفسه كان يدرك قيمة هذا الكتاب ، فقد رغب تعميم الفائدة منه وتقريبها إلى عدد أكبر من القراء ، فاختصر هذه الموسوعة الضخمة المسماة «صبح الأعشى» إلى مختصر أطلق عليه «ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر» تحسبا منه بأن من القراء من لا يقوى على قراءة هذه الموسوعة الضخمة ، ولا يصبر على هذه القراءة . ومن أراد واستطاع فعليه بمجلدات الموسوعة. وهكذا رأى القلقشندي مبكرا أن يعمل العالم أو المؤلف حسابه لهاتين الطائفتين من القراء في وقت واحد ..

كما يقرر مؤرخو القلقشندي ومحققوه أن كتاب « صبح الأعشى» هو أهم وأخطر كتب القلقشندي على الإطلاق . وهو الكتاب الذي يعرف به عبر العصور ، ويشتهر به ويذكر بين المؤلفين ، فلا يمر اسم القلشندي في مجال من مجالات الفقه الديني أو العلم أو الأدب إلا ويطرأ على الذهن أنه مؤلف «صبح الأعشى» وكفى . والنادر من القراء الذين يعرفونه بأنه مؤلف نهاية الأرب ، أو قلائد الجمان ، أو شارح مسند الشافعي ، أو ابن حنبل . بل إن معرفته ترتبط بتأليفه هذه الموسوعة الضخمة «صبح الأعشى».

ويذكر الدكتور «عبد اللطيف حمزة» إشارة إلى قيمة هذا الكتاب فيقول: «..وفي أوائل القرن العشرين طالعتنا دار الكتب المصرية بأول جزء من هذا الكتاب الكبير ، أو الموسوعة العظيمة ، فهال الناس جميعا ما اشتمل عليه هذا الجزء من العلم والفائدة ، وشجع ذلك دار الكتب على المضي في نشره بالطرق العلمية السليمة ..».

وهكذا استطاعت دار الكتب المصرية بهذا الصنيع أن تسدي للثقافة العربية الإسلامية جليل الخدمات عن طريق نشرها لهذه الموسوعة العلمية الأدبية للقلقشندي.

إن هذا العلم من أعلام الفكر الإسلامي لا يحظى من أبناء وطنه بالاهتمام الجدير به ، اللهم إلا ما قامت به جامعة بنها في عام 1985م من عقد ندوة علمية حوله كواحد من أعلام محافظة القليوبية ، والتي فيها رفاته ، ومسجده هناك في بلدته قلقشندة التي انتسب إليها .

* * *

ابن الوزير

«محمد بن إبراهيم بن الوزير بـن عـلي» المعـروف في التـاريخ الإسـلامي بـابن الوزير اليمني ، من مجددي الإسلام في القرن التاسع الهجري ، كان من أئمة الزيديـة الذين ينتهي نسبهم إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهـه ، وقـد كـان لهـؤلاء تاريخ قديم في اليمن ؛ لأنهم كانوا يؤمنون بإمامة أبي بكر وعمر بن الخطاب وعـثمان ابن عفان رضى الله عنهم أجمعين ، ولا يغالون في أمر الصحابة كما يغالي غـيرهم مـن أتباع وأئمة المذهب الشيعى ، بل كـانوا يحترمـون هـؤلاء الخلفـاء الثلاثـة ويجلـوهم إجلالهم للإمام علي وبنيه رضى الله عنهم .. ومع ذلك كـان لهـم مـذهبهم الخـاص ، يتعصبون له ويقلدونه كما يفعل غيرهم من أتباع المذاهب الأخرى : شيعية أو سنية .

درس هذا المجدد – الذي ولد عام 775 هـ – العلوم والفقه على أيـدي الـذين سبقوه إلى العلم والفضل ، فقرأ العربية على أخيـه الإمـام الهـادي مـن علـماء الـيمن البارزين ، وقرأ علم الكلام على القـاضى عـلي بـن عبـد الله ، ودرس أصـول الفقـه والتفسير والحديث على كبار علماء اليمن حتى أجاد ما تيسر لـه الاطـلاع عليـه مـن العلوم . وحتى اشتهر بين علماء عصره بمعرفة الكثير من جوانب العلوم .

ومما يذكر لهذا المجدد وهو في الأصل ينتسب إلى أئمة الزيدية . أنه كـان شـديد الميل لأهل السنة على خلاف أهل مذهبه الشيعي، حيث كان لا يتقيد بالتقليد الشيعي بل يؤثر الكتاب والسنة ، ولا يتقيد بأي مذهب من المذاهب الشيعية التقليدية .

ويذكر أيضا عن هذا المجدد : أنه حين قصد مكة للتزود بعلم علمائهـا ، حيـث قرأ الحديث على «ابن ظهيرة» أحد علـماء مكـة ، والـذي عـرف لهـذا المجـدد قـدره

فاعتبره عالما مثله ، وقد قال له يوما : «لو احتججت إلى هذا النسب والتقليدات ، ما اخترت غير الإمام القاسم بن إبراهيم بن الوزير أو شقيقه الهادي » تأكيدا لمدى تقديره واحترامه لعلمه وفضله .

وكما يذكر مؤرخوه أن ابن الوزير كان في علمه مجتهدا غير مقلد ، حتى كان يزاحم الأئمة الأربعة وأتباعهم في اجتهاداتهم ، ويجادل أئمة الأشعرية والمعتزلة فيما يقولونه ، حتى كان أهل مذهبه من الزيدية يثورون عليه ثورة بعد أخرى ، فلا يؤثر هذا في تمسكه بما يؤمن ، بل يزداد إصرارا على التمسك بالكتاب والسنة ، ولو أدى ذلك إلى مخالفة مذهب أجداده من الزيدية . وقد كان على قناعة بأنه بهذا الأسلوب لا يرى بأنه يخرج بمسلكه هذا عن أصول أئمة الزيدية . وكذلك كان يغضب من قول حساده بأنه موال لأهل السنة ، وأنه بذلك يخالف إسلامه ، وكان يدافع عن نفسه شعرا ، فيقول :

ديني كأهل البيت دينا قيما — متنزها عن كل معتقد ردي
ويشك في ذوي الجهالة والعمى — والشمس لا تبدو لعين الأرمد
إني أحب محمدا فوق الورى — وبه كما فعل الأوائل أقتدي
وأحب آل محمد نفسي الفدى — لهم فما أحد كأهل محمد
ولهم فضائل لست أحصي عدها — من رام عد الشهب لم تتعدد
سنوا متابعة النبي ولم يكن — لهم غرام بالمذاهب عن يد

ولعل ذلك ما يفسر اختلافه عن أسلافه من الزيدية ، يضاف إلى ذلك أيضا أن ابن الوزير كان يعد من أتباع مدرسة ابن حزم وابن تيمية ، فلم يكن مقبلا على الخوض في علم الكلام ، بل كان يرى أن ترك الخوض فيما لا تمس الحاجة إليه أفضل من هذا العلم ، كذلك كان ينتقد سلوك المصنفين حيث يقتصر المصنف لمذهب

واحد في الضعيف والقوي ، والدقيق والمجلي ، مع أنه لا يلزم أن يكون الصواب في جميع الموضوعات ، إلا ما حصل فيه أحد الإجماعات القاطعة من الأئمة الكبار ، وهو يعني بذلك أئمة أهل البيت ، لأنه لم يتخلص من مذهبهم ؛ فكان شأنه في ذلك شأن ابن حزم وابن تيمية .

ولابن الوزير اليمني مؤلفات تنحو نحوا تجديديا ، وهو ما يقصد إليه كتاب عنوانه (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) ، مع أن القرآن فيه كثير من الأساليب المنطقية وإن كانت موضوعة في قوالب تتفق مع بلاغة اللغة العربية ، وله أيضا كتاب (العواصم والقواصم) وهو كتاب من أربعة مجلدات ، ومنها كتاب (إيثار الحق في رد الخلافات إلى المذهب الحق) وكتاب (القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاء به من شرائع) ، وكتاب (تنقيح الأنظار في علوم الآثار) وكتاب (نصر الأعيان على شر العميان) رد فيه على أبي العلاء المعري ، ويأخذ عليه ما كان يشاع عنه من غير تحر ولا تثبت ، وقد أشار إلى ذلك عدد من نقاد ومؤرخي أبي العلاء المعري .

إلا أن ما يؤخذ على ابن الوزير – على الرغم من علمه – نظرته إلى العلوم غير الدينية من علوم الفلك والطبائع والطب والهندسة والحساب والجبر إلى جانب العلوم الفلسفية. فقد اعتبرها غير مطلوبة مبررا ذلك بأن هذه العلوم لم يقرر الشرع بوجوب معرفتها ، ولم يدع إلى تعلمها !! ومصدر الخطأ هنا أن هذا المجدد لا يعنى إلا بأمر الآخرة فحسب ، مع أن الإسلام كما هو معروف يعنى بالآخرة والدنيا معا ، وأن هذه العلوم ضرورية للمسلمين في دنياهم . وقد تأثر في هذا بابن تيمية .

وقد ظل ابن الوزير اليمني على اجتهاده حتى كانت وفاته في عام 840 هجرية بعد أن اعتزل الناس وتفرغ تماما للعبادة ، وكأنه يذكرنا بحجة الإسلام الإمام الغزالي في آخر أيام حياته .

* * *

المقــريزي

«تقى الدين أحمد بن على المقريزي» : يعتبر من مجددي القرن التاسـع الهجـري ؛ حيث كان نموذجا فذا للمؤرخين الذين أنجبتهم الحضارة العربية الإسلامية، وذلك لبنائه المنهجى في كتابة التاريخ في ثلاثة جوانب رئيسية: **أولها** تعليمـه الـذي شـغل أساس هذا البناء، **والثاني** تجربته التى اكتسبها من الوظائف التى اضطلع بها، **والثالث** كونه شاهد عيان على أحوال دولة كانت عظمى، وبدأت تنتقل إلى التدهور.

ولقد بلغت أهمية هذا المؤرخ ليس لكونه عميد المؤرخين أو كونه أسـتاذا لابـن بردي وابن إياس ، ولكن للثقة التى تتسم بها كتاباته التاريخية حتى قيل إنه لا يكتمل بحث أي دارس في تاريخ القاهرة إلا بالرجوع إلى كتـاب مهـم جـدا عـن تاريخهـا ، عنوانه : «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثـار» ، وهـو الكتـاب المـشهور باسـم «الخطط» لهذا المؤرخ العظيم ، حيث توافر على دراسة المعـالم القاهريـة مـن حـارات وشوارع وميادين إلى دروب وقياسر وحمامات ، إلى رباع وأسواق ومدارس وخوانق ومستشفيات ، فضلا عن أخبار المدن المصرية الكبرى ، وتراجم رجال الدولة ونظم الحكم في مختلف العصور .

ولعل مقدمة أو افتتاحية هـذا الكتـاب تـشى بـالكثير ممـا نريـد أن نعرفـه عـن شخصية هذا المؤرخ الخالد ، لما اكتنف هذه الشخصية من منحنيات ذكرهـا الـبعض إما قصدا للإساءة إلى هذا المؤرخ ، أو عن غير قصد ، حيث جاءت في سياق الحديث عنه .. والأمران معا يتطلبان التوضيح الذي ربما نوفق في تقديمه ، هذه العبارة التـى جاءت في مقدمة أو افتتاحية هذا الكتاب ، والتى تزيل الكثير من اللبس والغمـوض حول أصالته العربية والتى تقول : «وكانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابي ، ومجمع ناسي ، ومغني عشيرتي وحاميتي ، وموطن خاصتي وعامتي » .

لكن قبل التعرض لما وراء هذه العبارة من دلالات ومعان ، أسباب وعلل ، نتعرف على شخصية صاحبها .

إنه أحمد بن علي المقريزي ، ولد عام 1364 ميلادية بحارة برجوان بقسم الجمالية بالقاهرة ، في أسرة معروفة أجيالها بالعلم ، أو في بعلبك بلبنان .. أو في هذا الحي من القاهرة. أي: أنه شهد حوادث عصره من رواية أبناء الفئة المثقفة من الطبقة الوسطى – على حد قول المصلح الاجتماعي المعاصر – أما هذه الحوادث فهي في مجموعها نوبات احتضار وذبول وأفول في دولة مملوكية ، ذات بطولات شامخة سالفة ، وأمجاد ماضية ، ملأت عين التاريخ في الشرق والغرب . ومن نافذته الفكرية شهد المقريزي الكثير من هذه الحوادث طوال عشرين عاما ، هي عمر طفولته وصباه، وبدايات شبابه .

وإبان هذه الحوادث المتقلبة عكف المقريزي – طفلا وصبيا وشابا – على الدراسة التقليدية لأبناء طبقته ، وهي دراسة علوم الدين ، وحفظ القرآن ، ومعرفة النحو ، ودراسة الفقه والتفسير والحديث ، وبعض العلوم الأخرى مثل : تاريخ العمران ، وتقويم البلدان ، والأدب ، والحساب .

غير أن نظرة متفقة مع رأي الدكتور «محمد مصطفى زيادة» إلى أعماله التأليفية تدل دلالة واضحة على مدى تأثره بمحيطه من الحوادث المضطربة ، مثله في ذلك مثل أستاذه «عبد الرحمن بن خلدون» ، الذي رأى ما رأى بإسبانيا الإسلامية ، والشمال الإفريقي من تفكك وفساد وفتنة وانحلال ، فألهمه ذلك إلى تأليف تاريخه المسمى بكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر).

لقد تكررت هذه النغمة في مؤلفات المقريزي لأسباب كثيرة ، **أولها** تلمذته المباشرة على العلامة ابن خلدون ، **وثانيها** المحيط المملوكي الذي عاش وانغمس فيه، **وثالثها** أن أسرة المقريزي جاءت إلى مصر حديثا في حياة أبيه من موطنها في بعلبك بلبنان ، ولابد أن أحاديث هذه الأسرة امتلأت بوصف خصائص الحياة

المصرية الجديدة ومقارنتها بالحياة اللبنانية ، فتولدت عند مؤرخنا المقريزي روح الاستطلاع والفحص منذ طفولته وصباه وشبابه .

وهناك تأكيدات على أن هذا المؤرخ ينتسب إلى لبنان ، أو أن مسقط رأسه هناك. فكما يسجل الدكتور «محمد مصطفى زيادة» في حديثه عن هذا المؤرخ الخالد ، بأن اسمه يرجع إلى حارة مقريز في بعلبك بلبنان ، ولا يسع الدكتور زيادة إلا أن يشير - في هذا الصدد - إلى المطابقة الحرفية بين هذا الاسم «المقريزي» في اللغة الإيطالية ، حيث يطلق على جهة بإيطاليا قريبة من عاصمتها روما ، مما يحتمل معه أن تكون حارة «مقريز» البعلبكية هي سكن لجالية من الجاليات الإيطالية الكثيرة التي وفدت للتجارة ببلاد الشرق الأدنى أيام الحرب الصليبية ، ثم خلفت اسمها بعد خروج الصليبيين وجالياتهم الأوروبية من الشرق .

ولكن الدكتور زيادة يحقق هذه المسألة تحقيقا علميا ، خلاصته : أنه لا ينبغي أن يتسرب إلى الذهن أن المقريزي من سلالة إيطالية، لأن أباه وأسلافه معروفون، فجده لأبيه من كبار المحدثين الحنابلة ، وينتسب إلى الفاطميين على حد قوله في الحديث عن نفسه ، وجده لأمه من المحدثين الأحناف الكبار ، هذا إلى جانب أن المقريزي جاء من أسرة معروفة أجيالها بالاشتغال بالعلم ، وهو ما لا ينتظر أن تشتغل به أسرة أجنبية التي عادة ما يشتغل أبناؤها في المهن والصناعات والحرف والتجارة . وثمة دليل على أصالة المقريزي العربية الإسلامية ، هو أن المؤرخ «السخاوي» الذي اشتهر بتعقب أخبار السابقين والمعاصرين لم يذكر شيئا عن هذا الاحتمال ، مع ما هو معروف عن السخاوي من الغرام بالبحث في أصول الناس وأسرارهم إلى درجة المبالغة في الأصول ، ولا سيما أهل صناعته من المؤرخين .

وبحكم طبقته واعتباره من أهل العلم ، وهي المهنة المميزة لهذه الطبقة عن طبقة أهل السيف وهم المماليك ... التحق المقريزي بالخدمة الحكومية في ديوان الإنشاء بالقلعة وهو الديوان الذي يقابله في العصر الحاضر : وزارة الخارجية ،

فعمل كاتبا به ، وهي وظيفة لا يبلغها إلا أصحاب المؤهلات العالية ، والموهبة والتفوق في اللغة والأدب والتاريخ وتقويم البلدان .

بعد ذلك اختير قاضيا شافعيا ، بسبب ما اشتهر عنه من الحماسة للمذهب الشافعى منذ أيام دراسته وتحوله عن مذهب الحنفية الذي نشأ فيه ، ثم أصبح إماما لجامع الحاكم الفاطمى ، ثم مدرسا للحديث والتفسير بالمدرسة المؤيدية ، وهى وظيفة يقابلها أستاذ كرسى بالجامعة . ويبدو أن هذه الوظيفة كانت بتوصية من أستاذه «عبد الرحمن بن خلدون» للسلطان برقوق .

لكن لم يستمر في هذه الوظائف التى تدور في فلك الدين والعقيدة ، إذ انتقل إلى وظيفة الحسبة ، حين عينه «السلطان برقوق» محتسبا للقاهرة والوجه البحري ، فانتقل بذلك من المشتغلين بالفقه والدين والتعليم ، إلى دائرة الإدارة والاختلاط بالناس ، حيث الأسواق والأسعار والموازين والنقود والشوارع وتنظيم الحركة بها . مع الإشراف على المدارس والعناية بالمساجد والحمامات والوكالات ، ومراقبة أصحاب الصناعات العالية من الأطباء والصيادلة والمهندسين والمعلمين والمعماريين، يضاف إلى كل ذلك مراقبة الباعة الجائلين والمتعطلين والشحاذين ... وغيرها من وظائف تشترط فيمن يتولاها الكفاءة والدقة والعدل والنزاهة في الحكم ، والأمانة في تطبيق الأحكام الشرعية .

غير أن المقريزي تنحى عن وظيفة «المحتسب» ، إذ ضاق بمسئولياتها التى شغلت وقته ، وصرفته عن القراءة ، وتطلبت منه الجلوس على أريكة المحتسب للفصل بين الناس وحل مشاكلهم ليعود إلى دائرة المشتغلين بالتدريس مرة أخرى ، حين عينه السلطان برقوق مدرسا للحديث والتفسير بالمدرستين : الإقبالية والأشرفية بدمشق في سوريا ، ثم قاضيا بها ، وهى وظيفة اعتذر عن قبولها ، حيث سئم الوظيفة وما يتبعها من مسئوليات تصرفه عن العلم والتفقه فيه ، والتأليف والكتابة ، بل والتأريخ وهي أعمال نذر نفسه لها جميعا .

ولعله كتب في هذه الفترة كتاب السيرة النبوية بعنوان : (إمتاع الأسماع بما للرسول من أبناء وحفدة وأخوال وأتباع) الذي استهله قائلا : «إنه غير جميل أن يتصدى للتدريس والإفتاء ، والجلوس للحكم بين الناس ، والفصل في قضاياهم.. من يجهل من أحوال رسول الله ، وجميل سيرته ما لا غنى عن معرفته» . وكتب أيضا - إبان تواجده بدمشق- كتابا آخر في التاريخ الإسلامي، عنوانه: (النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم) ، وهو كتاب مستمد من فكرة العصبية القبلية التي بنى عليها أستاذه «عبد الرحمن بن خلدون» معظم نظرياته في فلسفة التاريخ .

ويعود إلى القاهرة حيث ينصرف إلى التدريس والتأليف . وكما يقول الدكتور «زيادة» في تأريخه للمقريزي بأنه حج إلى بيت الله الحرام ليفصل بين مرحلتين من حياته، ليقضى هناك بمكة خمسة أعوام اشتغل خلالها بتدريس الحديث وتفسيره ، ولعله قام بتأليف عدد من الكتب في هذه الفترة ، منها (الكلام ببناء الكعبة بيت الله الحرام) و(ضوء الساري في معرفة تميم الداري) و(التبر المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك) وغيرها من كتب صغيرة تعنى بتاريخ العرب وأخبارهم .

ويرحل عن مكة عائدا إلى القاهرة ، حيث يستقر فيها بقية حياته في حارة «برجوان» التى كان يفاخر بها على سائر حارات القاهرة ، ليجعل من داره مكانا للتدريس والتأليف ، حيث بدأ كتابة مؤلفه الأشهر في تاريخ القاهرة المعروف باسم: (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ، وهو الكتاب باسم (الخطط المقريزية) وسمى بالخطط لأنه اعتنى بدراسة معالم القاهرة من حارات وشوارع ورباع وأسواق ومدارس ومستشفيات ومساجد ، فضلا عن أخبار المدن المصرية الكبرى ، وتراجم لرجال الدولة ونظم الحكم .

وزادت مؤلفاته الكبرى والصغرى على المائة كتاب ، ولعل من أهمها بعد كتاب «الخطط» وكتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» كتابين : الأول منهما (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم) الذي أرجع فيه أمر التنافس على الخلافة

الإسلامية بين الأمويين والهاشميين إلى عصبيات الجاهلية. والكتاب الثاني هو (إغاثة الأمة بكشف الغمة) الذي تناول فيه تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى زمنه ، مما أدى إلى انتشار الأمراض ، وأهمها الطواعين ، وأرجع كل ذلك إلى سوء تدبير الملوك والحكام ، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد ، وهو تخريج اقتصادي لم يسبق إليه أحد من المؤلفين قبله .

ويظل على هذا النحو مؤلفا وفقيها ومؤرخا ومفسرا حتى يلقى ربه ، حيث يلفظ أنفاسه الأخيرة بالقاهرة ، التي أحبها وتغنى بكل شبر فيها ، وكان ذلك عام 845 هجرية الموافق 1442 ميلادية. ليقول عنه اثنان من المؤرخين المعاصرين **أولهما** : الدكتور محمد مصطفى زيادة : إن المقريزي يعتبر عميد المؤرخين السابقين من ابن عبد الحكم إلى الجبرتي .. ذلك أن مؤلفات هذا المؤرخ الفذ من جهة ، وفكرة التاريخ عنده من جهة ثانية ، ورؤيته التحليلية للظواهر التاريخية ومنهجه في الكتابة التاريخية من جهة ثالثة .. تجعله جديرا بهذه المكانة حقا ، حيث كان مؤرخا موهوبا ؛ ومفكرا فذا ، وناقدا لاذعا في تعليقاته على أحوال البلاد والعباد في ذلك الزمان ، كما كان على وعي كامل بما طرحه ابن خلدون من أفكار في فلسفة التاريخ ، وقد تمكن المقريزي من تطبيق آراء ابن خلدون على نحو لم يستطع ابن خلدون نفسه أن يفعله .

والمؤرخ الثاني هو الدكتور «قاسم عبده قاسم» الذي يقول عنه : «تكشف كتابات المقريزي عن أنه كان رجلا موسوعي المعرفة ، ملما بمعظم علوم عصره ، فقد قال عنه السخاوي: كان ملما بمذاهب أهل الكتاب حتى كان أفاضلهم يترددون عليه للاستفادة منه ، ومن ناحية أخرى تتلمذ المقريزي على ابن خلدون عندما جاء إلى القاهرة في أواخر القرن الثامن الهجري : الرابع عشر الميلادي . وبدأ عقد حلقاته الدراسية التي طرح فيها آراءه وأفكاره حول التاريخ ، والتي جمعها في مقدمته وتأثر بها تلاميذه ، ومنهم المقريزي .

* * *

ابن حجـر العسقـلاني

أحد مجددي القرن التاسع الهجري والمعـروف في التـاريخ الإسـلامي باســم : «ابن حجر العسقلاني» واسمه كاملا: أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد شهاب الدين أبو الفضل الكناني العـسقلاني المـصري القـاهري : حجـة مـشهور في الحديث ، ومؤرخ وفقيه شافعي ، ولد في الثاني عشر من شـعبان عـام 773 هــ (18 فبراير عام 1372 م) في مصر القديمة ، وفقد والديه في سن مبكرة جدا ، وكـان أبـوه عالما مبرزا يصدر الفتاوى ويقوم بالتدريس ، ونشأ ابن حجر في كنـف زكـي الـدين الخروبي ، وهو من كبار التجار . وما إن بلغ التاسعة حتـى كـان قـد حفـظ القـرآن ، وسرعان ما أجاد بسائط الفقه والنحو ، ودرس مدة طويلـة مـن الـزمن عـلى أعظـم علماء عصره . مثال ذلك : أنه درس الحديث والفقه على البلقيني ، وابن الملقن المتوفى عام 704هـ ، وعز الدين بن جماعة ، والقراءات على التنوخي ؛ واللغة وفقههـا عـلى محب الدين بن هشام المتوفى عام 799 هـ ، والفيروز آبادي . ولما كان ابن حجر يميل إلى الحديث؛ فقد وقف حياته على دراسته مند عام 793 هـ (أوائل ديسمبر 1390م). ولذلك قام بعدة رحلات في مصر والشام والحجاز والـيمن كانـت سـببا في اتـصاله بكثير من الفقهاء والأدباء : ودرس الحديث عشر سنوات متصلة عـلى «زيـن الـدين العراقي» المتوفى عام 806 هـ ، وقد أذن له معظم شيوخه في إصدار الفتاوى والقيـام بالتدريس ، ورفض منصبا قضائيا عرض عليه عدة مرات ، ولكنه قبـل أخـيرا بعـد رجاء صديقه قاضي القضاة «جمال الدين البلقيني» أن يكون نائبا له ؛ وفي المحرم عام 827 هـ (ديسمبر 1423 م) عين قاضيا للقضاة . وظل في هذا المنصب نحـو إحـدى وعشرين سنة ، وصرف عنه في خلال هذه المدة مرات وأعيد إليـه مـرات . وكـان في

أثناء ذلك يقوم بالتدريس في عدة مساجد ومدارس (ذكر السخاوي عشرة منها) وحاضر في التفسير والحديث والفقه ، وكانت دروس ابن حجر الملقب «بحافظ عصره» يحضرها - بشغف- العلماء المتخصصون أنفسهم ؛ وكان كذلك مفتي دار العدل وشيخا للبيبرسية ، وكان خطيبا في الأزهر ثم في جامع عمرو ، ثم عين أمينا لمكتبة القبة المحمودية .

وأجاد ابن حجر في فني: النثر والشعر، وأظهر نشاطا كبيرا في التأليف . وكانت كتبه التي كان عدد منها عظيم الأهمية في دراسة الإسلام ، كثيرا ما يتهافت الناس عليها حتى في حياته ، وخاصة شرحه المسمى (فتح الباري في شرح البخاري) (بولاق 1300-1301هـ) الذي بيع بثلثمائة دينار . ونذكر من كتبه التي تزيد على المائة والخمسين ما يأتي :

(الإصابة في تمييز الصحابة) ، و(تهذيب التهذيب) ، (تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة)، (القول المسدد في الذب عن المسند للإمام أحمد)، (بلوغ المرام من أدلة الأحكام) ، (في علم الحديث) ، (نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر)، (نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر) ، (الدرر الكافية في أعيان المائة الثانية) ، (إنباء الغمر بأنباء العمر) و(رفع الإصر عن قضاة مصر)، و(طوالع التأسيس في معالي ابن إدريس) ، وديوانه (غبطة الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر) ، وتوجد تفصيلات أخرى عن هذه المؤلفات في كتاب بروكلمان المعروف الذي ذكر فيه عدة مؤلفات أخرى .

وتوفي ابن حجر العسقلاني عام 853 هـ ، وكتب تلميذه «السخاوي» سيرته تحت عنوان : (الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر).

* * *

ألوغ بن شاه رخ

في البحث حول والي سمرقند «ألوغ بن شاه رخ» ، بالرجوع إلى تاريخه ، تدور في الخاطر عدة ملاحظات ، منها : أنه من عظمة الإسلام كدين ، أنه لم يقتصر على المواطن التي ظهر فيها : تلك التي ولد فيها وعاش وبعث نبيه - ﷺ - في مكة والمدينة ، أو حتى في شبه الجزيرة العربية أو ما يجاورها من بلدان عرفت فيما بعد بالعالم العربي .. وإنما امتد إلى غيره من الأمم والشعوب شرقا أو غربا ، شمالا أو جنوبا من مجموعها تكون ما سمي بالعالم الإسلامي ، ومن هذه الأمم : سمرقند وما يجاورها من أمم القارة الآسيوية .

ومنها : أننا قلنا - ونقول من قبل ومن بعد - إن الملوك شأنهم شأن سائر البشر فيهم الصالح الذي يبني ويشيد، كما فيهم غير ذلك ممن يهدم ويبدد. في النوعية الأولى من ينشر العدل والإنصاف ، ومن الثانية من يقر الجور والظلم .. وألوغ بن شاه رخ من هذه النوعية الثانية كما تشي به صفحات من تاريخه .

ثم من هذه الملاحظات ، هذه الملاحظة التي تتصل بالسابقة وهي : إن كان الولاة والملوك والأباطرة كسائر البشر ، ففيهم الصالح كما فيهم الطالح . وعلى هذا فقد اصطلح بعض العلماء والمؤرخين الثقات ، وأقروا فيما بينهم على أن يكون من بين هؤلاء الملوك والولاة مجددون في الإسلام كما رأينا من قبل ، وكما سنرى من بعد. مستندين إلى أن هؤلاء الملوك والأمراء شأنهم شأن غيرهم ، قد أضافوا جديدا إلى التفكير الإسلامي ، سواء في العقيدة والدين أو في غيرها من جوانب الحياة الإسلامية التي من مجموع ذلك تكونت الحضارة العربية الإسلامية .. ومن هؤلاء :

ألوغ بن شاه رخ والي سمرقند الذي عده عدد من العلماء والمؤرخين القدامى والمحدثين – وفي مقدمتهم من المحدثين الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» مستندا إلى ما قاله السابقون – أحد مجددي القرن التاسع الهجري ، حيث ولد عام 790هـ ، وتوفي عام 851هـ ، وبين ميلاده ووفاته نلمح بعض الجوانب الإصلاحية التي تبرز إضافة إلى مجموع المجددين في الإسلام .. فقد شغف منذ صغره بالعلوم الفلسفية والرياضية ، فتعلمها على من بقي مشتغلا بها في أممهم . ومن أجل ذلك ، سافر إلى الدولة العثمانية التركية ، فأخذ العلم من علمائها وبرع في ذلك ، حتى إن بعض العلماء رجع إليه خاصة في العلوم الرياضية والفلكية .

وكان مع ذلك بارعا في غيرها من العلوم حتى وصفه صاحب كتاب : (شذرات الذهب) «ابن العماد» بأنه كان «فريد دهره ، ووحيد عصره في العلوم العقلية ، والهيئة الهندسية ، حيث كان صاحب علم غزير وفضل وفير واطلاع كبير ، وباع واسع ، إلى جانب مشاركة جيدة إلى الغاية في فقه الحنفية والأصلين : – أصل الفقه ، وأصل العقائد – والمعاني والبيان والعربية والتاريخ ، وأيام العرب » .

ثم ذكر صاحب (شذرات الذهب) «ابن العماد» « أنه – أي : ألوغ بن شاه رخ – سأل بعض حاشيته عما يقول الناس فيه ، وألح عليهم في سؤاله ، فأخبروه بأن بعض الناس يقولون عنه إنه لا يحفظ القرآن الكريم ، فدخل قصره ، وعكف فيه معتزلا ستة أشهر حتى أتم حفظ القرآن .. » .

وكان ألوغ قد تولى حكم سمرقند بعد والده شاه رخ ، ومكث في ولايتها فترة قصيرة ، فيها كان يقرب إليه العلماء ، ويجالسهم ويناقشهم ، ويكثر من تقديرهم وبرهم ، وقد أراد أن ينشئ مرصدا عظيما بسمرقند ، فجمع علماء عصره المشهود لهم بالبراعة في هذا العلم ، وأغدق عليهم الأموال ، حتى جاء إليه علماء الهيئة والهندسة من البلاد البعيدة . وهو مع ذلك كان يبحث عمن يسمع به من علماء عصره ويرسل إليه طالبا معاونته العلمية ، ولعل الذي حمله إلى بناء هذا المرصد : أنه أراد أن يرصد

الكواكب ، بعد أن رأى خللا في إرصاد المتقدمين ، فأراد أن يبني مرصدا أتقن وأجود من كل ما سبقه من المراصد ، وقد كان هذا المرصد الذي أنشأه ألوغ يمتاز عن غيره في دقته في الرصد .

لكن هذا الحاكم المجدد ، صادفت حياته محنة قاسية ، هذه المحنة كانت في أحد أولاده ويدعى : عبد اللطيف . الذي طلب منه والده : ألوغ ، أن يتولى ولاية هراة ، فلم يجبه على ذلك ، فولاه ولاية بلخ ، فذهب إليها وهو كاره لها . وما يذكره مؤرخو ألوغ بن شاه رخ أنه كان حريصا ممسكا لا يغدق المال الكثير على أمرائه وحاشيته ، كما يفعل غيره من الملوك الذين لا يبالون بمصلحة رعاياهم ، في الوقت الذي لا يتحرجون فيه من الإنفاق على المقربين إليهم من الحكام من الأمراء والحاشية ، ولذلك .. فقد كرهه هؤلاء الأمراء والحاشية ، وأوعزوا إلى ابنه عبد اللطيف أن يخرج على أبيه ، حيث كان في نفسه ما كان في نفوسهم فانتهزها فرصة ، وأعلن الحرب عليه ، ولكن أمراءه وحاشيته خانوه حين التقى جيشه بجيش ابنه ، حيث انضم كثير منهم إلى ابنه ، تاركين إياه في جماعة قليلة العدد ، فانهزم من ابنه الذي تولى الملك بعده عنوة . ولما ضاق عليه الأمر ذهب إلى ابنه ، ودخل في طاعته ، ورضي أن يعيش كآحاد الناس تحت حكمه !

لكن يبدو أن النكبات كانت تحاصر هذا المجدد ؛ حيث كانت النكبة الثانية في قتل ابن آخر اسمه : عبد العزيز على يد ابنه عبد اللطيف في حضور الوالد ، فلم يطق هذا الوالد المنكوب في ولده المقيم في سمرقند ، وطلب من ابنه عبد اللطيف أن يأذن له في الخروج إلى الحج ، فخرج من سمرقند ، ولم يبتعد عنها مسافة يوم أو يومين ، وكان بعض أمراء السوء الذين يحيطون بابنه قد أوعزوا إليه الشر محذرين إياه مما قد يفعله والده ، فأرسل إليه من قتله وهو في طريقه إلى الحج وكان ذلك سنة 853هـ ، أي بعد سنتين من توليه الملك على سمرقند حيث تولى ملكها عام 851هـ ولو أنه

لبث في ملكه على سمرقند بعضا من الوقت لأحدث فيها تجديدا وتقدما أكثر مما أحدثه وهو مجرد أمير في حياة أبيه شاه رخ . ولكن قصر مدة ملكه لم تجعله يحقق ما كان يخطط له ويفكر فيه .

هذا الملك العظيم ألوغ شاه رخ في رأي الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» أحق بأن يكون من مجددي القرن التاسع الهجري أكثر من هؤلاء الجامدين من الفقهاء ، وبعض غلاة الصوفية . إذ كان ما قام به وصنعه في بلاده ، قريبا مما كان يجري في أوروبا وقتئذ من نهضة علمية ، وكان جديرا بأن يسير بالمسلمين في طريق النهضة لو كان الذي بعده يبني على أساس ما صنعه ، كما كان يحدث في أوروبا . وهذه آفة من آفات العالم العربي الإسلامي أن المسئول الجديد لا يعبأ كثيرا بما صنع الذي قبله من بناء ، بل يهدم اللاحق ويبدد ما أسسه السابق ، ظنا منه أن ذلك يصنع المجد الذي ينسب إليه دون غيره .

* * *

السيوطي

المؤرخ والعالم والفقيه : جلال الدين السيوطى ، أحد مجددي القرن التاسع الهجري ، وأحد صناع الحركة الموسوعية في الثقافة العربية الإسلامية التى كانت تنشط إذا ما مر بالعالم الإسلامى محنة من المحن التى يمتحن بها ، وهنا يهرع المؤلفون إلى جمع المعارف التى حصلها السابقون حتى يستفيد منها اللاحقون . وقد حدث هذا حين كانت محنة المسلمين في الأندلس في أواخر القرن الثامن الهجري بسنوات قليلة ، وبالتحديد في سنة سبع وتسعين وثمانمائة ، يوم أن خرج المسلمون من إسبانيا، وانقطعت عن العرب كل السبل إلى وصل تقدمهم ، أو الاستمرار فيما بدءوا .

وقد سبق محنة سقوط غرناطة العربية في الأندلس ، وزوال السيادة العربية في الغرب محنة أخرى في الشرق ، حين سقطت بغداد في أيدي المغول سنة ست وخمسين وستمائة (656 هـ)، وانتهت بدخول العثمانيين سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة (923هـ). وهذه الفترة التى امتدت إلى ما يقرب من ثلاثة قرون سميت بالعصر المغولي ، وذلك بسيادة المغول للرقعة العربية من حدود الهند شرقا إلى حدود سوريا غربا .

وكما بطش المغول بالمسلمين في الشرق بطش الإسبان بهم في الغرب ، ومن ضمن ما صنعوا إحراقهم المكتبات العربية ، وإتيانهم على الكتب .. ونفس الأمر فعله الإسبان في الغرب ، حيث أحرقوا وأبادوا عشرات الآلاف من الكتب العربية، والتاريخ يذكر ما فعله الكاردينال «زيمتسى» في آخر القرن التاسع بمكتبة غرناطة حين حرم الوجود الثقافي من ثمانين ألف مجلد .

وبسبب هذا العسف الذي لحق المسلمين في الشرق العربي على أيدي المغول في بغداد ، والغرب الأندلسي على أيدي الإسبان في غرناطة ، هاجرت الجموع من

الغرب والشرق إلى مصر، التي لم تكن قد امتدت إليها محنة الغرب الإسباني أو الشرق المغولي ، فهاجر إليها العلماء ، حيث لا إسبان ولا مغول ، وكان من بين هؤلاء عدد من المؤرخين في مصر والشام ، عرفتهم الثقافة العربية الإسلامية ، نذكر منهم : ابن خلكان (681 هـ) صاحب وفيات الأعيان ، وابن أبي أصيبعة ، (668 هـ) صاحب طبقات الأطباء ، وصلاح الدين الصفدي (764 هـ) صاحب الوافي بالوفيات ، وأبا الفدا (732هـ) صاحب المختصر في أخبار البشر ، والذهبي (748 هـ) صاحب تاريخ الإسلام ، وابن شاكر الكتبي (754 هـ) صاحب كتاب (فوات الوفيات) ، وابن حجر العسقلاني (852 هـ) صاحب الدرر الكامنة ، والمقريزي (845 هـ) صاحب الخطط ... وغيرهم .

وظهرت نتيجة أخرى لهذه المحنة التي ألمت بالعالم العربي - غربه وشرقه - بدت في لهفة المؤلفين على الجمع الموسوعي ، حتى أصبح هذا العصر يسمى بعصر الموسوعات أو عصر المجاميع . حيث خاف العلماء على اللغة والأدب من الضياع ، فاستكثروا من المعاجم . ولا عجب في ذلك ، حيث أحس الناس وقتئذ - بانطواء صفحات ، وزوال معالم ، وذهاب تاريخ فيما بين عشية وضحاها .

ومن أصحاب هذه الموسوعات والمجاميع والمعاجم : ابن منظور (711 هـ) صاحب لسان العرب ، والوطواط (718 هـ) صاحب نهاية الأرب ، وابن فضل الله العمري (748 هـ) صاحب مسالك الأبصار ، والفيروزآبادي (817 هـ) صاحب القاموس المحيط ، والقلقشندي (821 هـ) صاحب موسوعة صبح الأعشى .

وفي ظل هذه المحنة التي شملت العالم العربي : شرقه وغربه ، وتلك اللهفة الحافزة لجمع المعارف والمعلومات ، وتلك الغيرة الشديدة على تسجيل الأحداث وتحليلها - نشأ المؤرخ والعالم والفقيه جلال الدين السيوطي (849 هـ) وعاش ومات ، وأرخ لنفسه قائلا : «... وأما جدي الأعلى «همام الدين» فكان من أهل

الحقيقة ومشايخ الطرق الصوفية . وقد بنى مدرسة بأسيوط وأوقف عليها أوقافا . وكان مولدي – بالقاهرة – بعد المغرب ليلة الأحد ، مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، وحملت في حياة أبي إلى الشيخ «محمد المجذوب» ، وكان من كبار الأولياء بجوار المشهد النفيسي بالقاهرة .. ونشأت يتيما ، فحفظت القرآن ولي من العمر دون ثماني سنوات . ثم حفظت (العمدة) ، و(منهاج الفقه) و(الأصول) ، و(ألفية ابن مالك) . وشرعت في الاشتغال بالعلم من مستهل سنة 864 هـ ، فأخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ ، وأخذت الفرائض عن علامة زمانه «الشيخ شهاب الدين الشارمساحي» ، الذي يقال إنه بلغ السن العالية ، وجاوز المائة بكثير .. وأجزت بتدريس العربية في مستهل سنة 866 هـ ، وألفت في هذه السنة . وكان أول شيء ألفته : شرح الاستعاذة والبسملة ، وأوقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام : «علم الدين البلقيني» ، فكتب عليه تقريظا . ولازمته في الفقه إلى أن مات ، وأجزت بالتدريس والإفتاء من سنة 876 هـ .. ثم لزمت شيخ الإسلام : «شرف الدين المناوي» ، فقرأت عليه قطعة من (المنهاج) وسمعته عليه في التقسيم ، وسمعت دروسا من شرح البهجة وحاشية عليها من تفسير البيضاوي. ولزمت في الحديث والعربية ، شيخنا الإمام العلامة «تقي الدين الشبلي الحنفي» فواظبته أربع سنين ، وكتب لي تقريظا على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع في العربية ، وكان من تأليفي ، وشهد لي غير مرة بالتقدم في العلوم بلسانه وبنانه . ورجع إلى قولي مجردا في حديث ، فإنه أورد في حاشيته على الشفاء حديث ابن أبي الجمراء في الإسراء وعزاه إلى تخريج ابن ماجه ، فاحتجت إلى إيراده بسنده ، فكشفت ابن ماجه في مظنته فلم أجده ، فمررت على الكتاب – ثلاث مرات – فلم أجده ، ورأيته في معجم الصحابة لابن قانع ، فجئت إلى الشيخ وأخبرته ، فبمجرد ما أن سمع مني ذلك أخذ نسخته ، وأخذ القلم ، فضرب على لفظ ابن ماجه ، فأعظمت ذلك وهبته لعظم منزلة الشيخ في قلبي واحتقاره في نفسي ..

«ولزمت شيخنا العلامة «محيي الدين الكافيجي» أربع عشرة سنة ، فأخذت عنه الفنون من التفسير والأصول العربية والمعاني وغير ذلك ، وكتب لي إجازة عظيمة . وحضرت عند الشيخ «سيف الدين الحنفي» دروسا عديدة في الكشاف والتوضيح وحاشيته عليه ، وتلخيص المفتاح والعضد . وشرعت في التصنيف سنة ست وستين وثمانمائة ، وبلغت مؤلفاتي حتى الآن ثلاثمائة كتاب ، سوى ما غسلته ورجعت عنه. وسافرت بحمد الله إلى بلاد : الشام ، والحجاز ، واليمن ، والهند ، والمغرب . ولما حججت شربت من ماء زمزم لأمور ، منها : أن أصل في الفقه إلى مرتبة شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني ، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر .

«وأفتيت من مستهل سنة إحدى وسبعين وثمانمائة إملاء الحديث من مستهل سنة اثنتين وسبعين ، ورأيت التبحر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع على طريقة البلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة... والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة- سوى الفقه والنقول - التي اطلعت عليها فيها - لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد شيوخي، فضلا عمن دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ، بل شيخي فيه أوسع نظرا وأطول باعا . ودون هذه السبعة في المعرفة : أصول الفقه ، والجدل ، والتصريف. ودونها الإنشاء والتوسل والفرائض ، ودونها القراءات ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطب ، وأما علم الحساب فهو أعسر شيء علي ، وأبعده من ذهني ..

«وقد كملت عندي الآن آلات الجهاد بحمد الله تعالى ، أقول ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى لا فخرا . وقد أزف الرحيل ، وبدأ الشيب ، وذهب أطيب العمر ، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية القياسية ومداركها ، ونقوضها ، وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها .. لقدرت على ذلك من فضل الله ، لا بحولي ولا بقوتي ..

«وقد كنت في مبادئ الطلب قد قرأت شيئا في علم المنطق ، ثم ألقى الله كراهيته في قلبي ، وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته .. فعوضني الله عنه علم الحديث، الذي هو أشرف العلوم. وأما مشايخي في الرواية سمعا وإجازة فكثيرون... عددتهم نحو مائة وخمسين .. وهذه أسماء مصنفاتي ...» .. وبدأ في تصنيف كتبه .

وقد أحصى «بروكلمان» نحو خمسة عشر وأربعمائة مؤلف. كما أحصى له «حاجي خليفة» في كتابه : (كشف الظنون) نحو ستة وسبعين وخمسمائة كتاب ، ومن قبل أحصى له ابن إياس في تاريخه بأن كتبه بلغت الستمائة ، وأحصى له الشعراني في ذيل طبقاته أربعمائة وستين مؤلفا .

ويعلق الأستاذ «أحمد الأبياري» على كثرة مؤلفات السيوطي قائلا : إذا عرفنا هذا نكاد نفهم كيف اتسعت الأعوام الخمسة والأربعون التي عكف فيها السيوطي على العبادة والتأليف.. لهذا العدد من الكتب فهو قد بدأ التأليف- كما يقول في ترجمته لنفسه - عام 866 هـ ، وكانت وفاته عام 911 هـ .. فإننا لا نستكثرها عليه ..

وقد عاش السيوطي عظيما ، يعف عما في أيدي الأمراء والوزراء ، وسعى إليه هؤلاء الأمراء والوزراء . وعز في أنفسهم حين عز نفسه . وحسبك عنه أنه لما مات عام 911 هـ لم يتعرض أحد لتركته ، مع أن زمانه كان زمن جور ، وإليك ما قاله «جمال الدين الشبلي» في كتابه (السنا الباهر بتكميل النور السافر): «دفن جلال الدين السيوطي في قبر والده ، وعمل له «الأمير قرقماش» .. صندوقا من خشب ، وسترا أسود مطرزا بالأبيض بآية الكرسي ، وصار ضريحه مقصودا بالزيارة للتبرك ».

ويقول الشعراني في ذيل طبقاته : «ولما جئت إلى مصر قبيل موت السيوطي اجتمعت به مرة واحدة تبركا ، ثم بعد شهر سمعت ناعيه ينعي موته . إلى أن يقول : «مات جلال الدين السيوطي رضي الله عنه في ليلة الجمعة عام 911 هـ ، وكان له مشهد عظيم ».

وقد حقق العلامة «أحمد تيمور» مكان قبره في كتيب صغير بعنوان : (قبر الإمام السيوطي) ، وتحقيق موضعه ، فانتهى إلى أنه في المكان المعروف عند العامة ببوابة السيدة عائشة . حيث يقول : «وقبره مشهور عند أهل هذه الناحية ، الخلف عن السلف ، من زمان وفاته إلى اليوم ، ويرجع الفضل في حفظه إلى حسن اعتقاد الناس فيه ، وقصدهم إياه بالزيارة كل حين ، ويقيمون له مولدا كل سنة في النصف من شعبان .

* * *

زكريا الأنصاري

الحديث عن : زين الدين زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري ، المعروف في كتب السير والتراجم بالقاضي زكريا الأنصاري ، والذي كان في مقدمة المجددين في الإسلام على رأس المائة التاسعة للهجرة ، يجرنا للحديث عن أمر على جانب كبير من الأهمية ، وهو أن عالم الدين كان لا يقتصر - في علمه - على علوم الدين ومنها: الفقه والتفسير والحديث فحسب ، بل كان شبيها بأجداده العرب الأقدمين ، عالما شاملا . فإلى جانب علمه بالدين نراه يهتم بعلوم أخرى فلا يقتصر اهتمامه بعلوم لها اتصال بالدين ، كالنحو ، والصرف ، واللغة ، والمعاني ، والبيان والبديع ، والفلسفة، والمنطق ، والتصوف.. بل امتد كذلك إلى علوم أخرى، كالطب والحساب والجبر والمقابلة ، والهيئة والفرائض والهندسة ، وغيرها من العلوم المدنية التى كان أسلافنا من العرب الأقدمين يدرسونها ويتوافدون عليها ، إلى درجة أن الجامع الأزهر منذ أنشئ اهتم بها وقام بتدريسها .

ولو أن اهتمام الأزهريين بهذا المنهج العلمى الشامل قد استمر لظهر من علماء الأزهر علماء في الطب والهندسة والرياضيات ... وغيرها من العلوم غير الدينية . لكن في الوقت الذي أهمل فيه الأزهر هذا المنهج الشامل كانت أوروبا تستعد لنهضتها الحديثة ، وعدتها في ذلك ما أخذته عن العرب الأقدمين ، من أصحاب هذا المنهج الشامل الذي كان يمثلهم الفارابي وقبله الكندي وابن سينا ، وابن رشد والرازي وابن الهيثم وابن حيان ... وغيرهم ممن كان الواحد منهم يتقن الطب أو الهندسة أو الرياضيات أو الفلسفة أو حتى الموسيقى والألحان ، إلى جانب إتقانه للحديث والفقه والتفسير .

أقول : لو أن الأزهر استمر على منهجه الذي كان متبعا حتى القرن التاسع مثلا، الذي عاش فيه القاضي زكريا الأنصاري ، لكان للأزهر اليوم شأن آخر .. لكن الذي حدث أن الأزهر بعد ذلك رأى الاقتصار على العلوم الدينية والشرعية وما يتصل بها من فقه ولغة وأدب ونحو . وإذا امتد اهتمامه إلى غير ذلك من علوم . فإن اهتمامه يكون سطحيا بسيطا لا يغني .

ويبدو أن اهتمام رجل الدين بهذا المنهج العلمي الشامل كان له أكبر النتائج - على الأقل - المستمد حتى من حضارتنا العربية ، وإلا فما معنى العودة إلى الاهتمام بهذا المنهج الشامل لرجل الدين ، بحيث يأخذ شكل المعارف الموسوعية الجامعة ؟!

لقد طورت جامعة الأزهر في نهايات القرن الرابع عشر الهجري وستينيات القرن العشرين لتغطي هذا الاهتمام وتقوم به ، حيث أنشئت بهذه الجامعة كليات علمية كالطب ، والهندسة ، والتجارة ، والزراعة ، واللغات الأجنبية ، وغيرها من الكليات ذات الاهتمام بعلوم الدنيا - وكأن الأزهر يعود إلى سابق منهجه الشامل - وهي عودة محمودة لا يختلف في فائدتها أحد يهمه أمر الدين الإسلامي ، وكيف يكون رجاله على علم بعلوم الدين والدنيا معا .

ولعل في سيرة القاضي «زكريا الأنصاري» خير مثال على ذلك ، فنراه ينشأ على حفظ القرآن الكريم في قريته «سنيكة» التابعة لمحافظة الشرقية . التي ولد فيها عام 826 هـ . فلا يكتفي بذلك. وإنما يتجه إلى دراسة (مختصر التبريزي) في الفقه . لينتقل من الشرقية إلى القاهرة ، حيث يلتحق بالجامع الأزهر ، فيأخذ الفقه عن القاياتي ، والعلم عن البلقيني والتفسير عن شيخ الإسلام ابن حجر والنحو عن الشمني وابن همام . ولا يكتفي بهذا القدر من العلوم التي تؤهله لأن يكون عارفا أو عالما بدينه الإسلامي ، وإنما يتجاوزه ، فيدرس علوما منها : الصرف ، والأصول واللغة ، والهيئة ، والهندسة ، والميقات ، والحساب ، والجبر ، والمقابلة ، وعلم الحرف، والتصوف ... وغيرها .

ولم يزل هذا المجدد مشتغلا بطلب العلم على طريقة جميلة من التواضع وحسن العشرة ، والأدب والعفة ، والابتعاد عن زخرفة الحياة ، مع شرف النفس ، ورجاحة العقل ، وسعة الصدر والاحتمال والصبر حتى أذن له شيوخه في الإقراء والإفتاء.

ثم ينتقل القاضي زكريا الأنصاري إلى مرحلة جديدة من حياته ، حيث يتصدى للتدريس في حياة الكثيرين من شيوخه وأساتذته ، وينتفع به طلاب العلم جيلا بعد جيل ، بل ويستطيع أن يسهم إلى حد كبير في تدريس بعض العلوم المتصلة بالحياة أو يضع مناهج لها ، ومن هذه العلوم : التصريف ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ، والمنطق ، والتصوف ، والفرائض ، والحساب ، والجبر ، والمقابلة ، والهندسة ... وغير ذلك من العلوم التي كانت تدرس وقتئذ بالأزهر ، ولم يكن الأزهريون قد أهملوها ونظروا إليها نظرة أقل من نظرتهم إلى العلوم الدينية المحضة ، بدعوى التخصص فيها .

وطبيعي والأمر كذلك .. أن يعلو قدر هذا العالم المجدد المستنير ، وذلك بما حازه من علوم أفاد بها غيره ، وطبيعي أيضا أن يولى المناصب المرموقة كالتدريس في مقام الإمام الشافعي ، وهو أرفع منصب علمي وقتئذ ، ثم يتولى ويشرف على مدارس وخانقاوات صوفية . إلى أن يتولى منصب قاضي قضاة مصر الذي يعادل منصب وزير العدل الآن بعد امتناع عنه كثيرا ، وتعفف أكثر .

يمارس القاضي زكريا الأنصاري العمل في القضاء ، ويكون في عمله قدوة ومثلا لمن يجيء بعده في هذا المنصب الحساس ، ويستمر فيه مدة ولاية السلطان الأشرف قايتباي ، ويستمر بعد هذا العهد دون توقف منه أو إيقاف من السلطان إلى أن يكف بصره، فيستبعد بسبب آفة العمى. ولكنه بالرغم من ذلك يواصل التدريس والإفتاء في أمور الدين والدنيا والتصنيف في الأدب والثقافة .. ولهذه الجهود يعد القاضي زكريا الأنصاري أحد مجددي القرن التاسع الهجري– لشهرة الانتفاع به ، وكثرة تصانيفه ، واحتياج أغلب الناس إليها فيما يتعلق بأمر دينهم ودنياهم .

ولا ريب أن هذا المجدد قد أسهم في أمـور كثـيرة في مقـدمتها أمـران جـديران بالاعتبار :

الأمر الأول : أن الجامع الأزهر في عهده لم يكن يضيق بدراسـة علـوم الهندسـة والطب والرياضيات ، وما إليها من العلـوم بمعناهـا الـدقيق ؛ لأن القـاضي زكريـا تعلمها ، ثم اشتغل بتدريسها والتأليف فيها ، ولا غرو في ذلـك ، فقـد كـان الجـامع الأزهر أكبر معهد على مستوى العالم العربي ، ولذلك كان لعلمائـه وطلابـه رغبـة في تحصيل كل العلوم ، وكانت لهم همم كبيرة في ذلك .

والأمر الثاني : (الذي تيسر بفضل وجود هـذا المجـدد) : أن هـذه العلـوم غـير الدينية قد تبسطت وتيسرت حتى أمكن تدريـسها لطـلاب العلـم بـالأزهر بعـد أن كانت دراستها مقصورة عـلى عبقريـات الحـضارة العربيـة الإسـلامية مـن أمثـال : الكندي والرازي وابن سينا ... وغيرهم من الفلاسفة .

ويظل هذا المجدد مواصلا طريق العلم : مدرسـا وقاضـيا وصـاحب فتـوى ، حتى يتوفى عام 925 هـ ، ويدفن بالقاهرة بمسجد الإمام الشافعي .

❊ ❊ ❊